

العجائبية بين المتخيل والواقع: مقارنة تأويلية في رواية يوتوبيا لـ "أحمد خالد توفيق"

The Miraculous Between the Imaginary and the Real: A hermeneutical approach to Ahmed Khaled Tawfiq's Utopia

آمال قروف*¹، د. عبد الله أوغرب²¹ المركز الجامعي سي الحواس بركة، الجزائر، amel.guerrouf@cu-barika.dz² المركز الجامعي سي الحواس بركة الجزائر ، abdellah.ougherb@cu-

barika.dz

مخبر الشعرية الجزائرية - جامعة محمد بوضياف - المسيلة -

تاريخ الاستلام: 2024/09/04 تاريخ القبول: 2024/11/15 تاريخ النشر: 2024/12/01

ملخص: جنحت العجائبية في رواية "يوتوبيا لأحمد خالد توفيق" إلى المزج بين الخيال والواقع، مقحمة القارئ في عوالم خيالية تضفي الغرابة والتعجب، حين يتماهى الخيال والواقع، مما يشوش القارئ ليقع في بوتقة الإيهام بالحقيقة دون الإمساك بها، في ظل انفتاح الدلالات وكثافة الإيحاء التي تستدعي استراتيجيات التأويل. والدراسة تنفتح على جملة من التحولات الاجتماعية والدينية، وتغيّرات النظم السياسية والاقتصادية والثقافية، وحتى المعاملات اليومية. هذا ما يدخل المتلقي في عوالم يوتوبية غرائبية.

كلمات مفتاحية: العجائبية، اليوتوبيا، الواقع، المتخيل، التأويل.

Abstract: "The peculiarity in Ahmed Khaled Tawfiq's novel 'Utopia' lies in the fusion between imagination and reality, immersing the reader in fantastical worlds that evoke strangeness and astonishment when imagination and reality harmonize, leading the reader into the crucible of illusion without grasping it. In the midst of open interpretations and the density of implications that call for strategies of interpretation and study, it opens up a series of social transformations, changes in political, economic, religious and cultural systems, and even everyday interactions. This is what plunges the recipient into strange utopian worlds.

Keywords: The peculiarity; Utopia; imaginative; Reality; Interpretation.

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

العجائبية أحد الأشكال التي يتلون بها النص الأدبي، بما تتسم به من مظاهر غرائبية وفانتاسيكية تسحر المتلقي وتقحمه في عوالم تتجاوز الواقع وتخترق قوانين الطبيعة، يزدحم فيها الواقع والخيال، ساهمت في زعزعة الأطر التقليدية وحشد المعقول باللامعقول.

وفي محاولة البحث عن العلاقة بين المتخيل والواقع، تقمنا الدراسة في خضم جملة من التساؤلات: كيف تظاهرات العجائبية في رواية يوتوبيا؟ وهل نجحت الرواية في تشييد عالمها الطوباوي المنشود؟ وماهي الرؤى التي يطرحها؟ وكيف تجسد في الرواية؟ وهل تمكن الروائي من تضليل القارئ وإيقاعه في حيلة التماهي بين المتخيل والواقع حد الالتباس؟ وهل يأيض الخيال واقعا متحققا؟

2. تظاهرات العجائبية في رواية يوتوبيا:

1.2 اليوتوبيا المشوهة:

أدخل لطالما كان سعي الإنسان منذ القدم موجها لبناء عالم مثالي تتحقق فيه السعادة المطلقة والراحة الأبدية وذروة الرفاهية، وهذا ما أوجد اليوتوبيات عبر تاريخ الإنسانية، فقد "كانت اليوتوبيات في أكثر الأحيان خططا ومشروعات لمجتمعات تعمل بشكل آلي، ومؤسسات مينة تصورها اقتصاديون وسياسيون وأخلاقون، لكنها كانت كذلك الأحلام الحية للشعراء"¹.

واليوتوبيا منظومة تسعى إلى هيكله أطرها وفق قوانينها الذاتية وتصوراتها المشتركة وتطلعاتها المثالية لتشديد عالم متكامل ومتطور يحقق لها أسمى فعاليا العيش.

"إنها تتحدث عن أماكن طيبة (تصبح فيما بعد سيئة)، وتمثلها كما لو كانت حقيقية، فتستعرض أناسا يعيشون حياتهم اليومية، وتصور الزواج والأسرة والواجبات والعمل وما شابه

ذلك، إضافة إلى النظم السياسية والاقتصادية²، فالليوتوبيا تتطلع لدينامية المجتمعات وتحولاتها في أدق تفاصيلها اليومية، وهياكلها السياسية والاقتصادية والعقائدية والفكرية. وهي في الوقت ذاته "تصور لعالم متكامل في صورته السامية التي تُوَطر مختلف مساعي النفس البشرية في تحقيق رفايتها المنشودة فتقدم صورة متكاملة لعالم مثالي، تختفي منه شرور عالم الواقع، وتتحقق فيه أحلام الإنسانية بالسعادة والكفاية والعدل"³. فالتصور المفترض أن يكون عالماً ملئاً بالخير والسعادة إلا أن الروائي عرض لليوتوبيا بصورها الإيجابية والسلبية، فتحدث عن مجتمع مثالي حقق رفايته المطلقة، وقام ببناء سعادته على أنقاض مجتمع آخر، لأن "اليوتوبيات المعاصرة لا تشبه على الإطلاق ما كنا نطلق عليه في السابق يوتوبيا؛ فهي على وجه الخصوص أكثر تعقيداً، وأقل تحديداً في مقاصدها، وتسعى لتوضيح عيوب البشرية"⁴.

والليوتوبيا التي رسمتها الرواية محاكاة لعالم شبه مثالي يهدف لتحقيق المبادئ والقيم بشكل نسبي، والمهم لديهم أن لا يتأذى أحد من يوتوبيا غير ذلك لك أن تفعل ما شئت، "فهذا المجتمع قد أفرز قوانينه الخاصة ومحاكمه، هناك شاب قد أخطأ أو فعل ما يوجب حنق الكبار عليه.. الأخطاء هنا هي أن تدمر الملكية الفردية لآخر من يوتوبيا"⁵. أما الأغراب الذين يقطنون خارج المجمع فيتم استغلالهم واستعبادهم لمصالحهم الشخصية وتلبية رغبتهم الغريزية، وممارسة القهر والظلم وعمليات الاصطياد عليهم فقط لأنهم فقراء بلا مال. هذا ما يظهر في المشهد الذي يحاول الليوتوبي قتل أحد الأغيار، "يدير راسم محرك سيارته ويندفع فيوشك على قتل واحد من الأغيار العاملين، لكن الأحقق وثب على الرصيف المرتفع.. لسبب ما لا أفهمه يصر هؤلاء على أن يعيشوا.. فعلاً لا أمزح هنا أو أبالغ. لو كنت من الأغيار لتركت عجلات السيارة تمر فوق أحشائي"⁶.

فمسألة العقاب منبذة نهائيا في كلا العالمين، "فكرة العقاب انتهت تماما من المجتمع حيث أن جميع مبررات الجريمة قد انتفت تماما"⁷.

والسارد عمل على مقارنة بين قطبين أحدهما يعيش ذروة الانحطاط والآخر قمة الرخاء، غير أن مجتمع الأغيار يختلف عن عالم يوتوبيا حد التناقض لنقف أمام عالم مليء بالبؤس والمرض والموت الذي يحيط بالأغيار في كل مكان إلا أن أعدادهم في ازدياد فائق "الغريب أنهم تكاثروا بسرعة لا تصدق.. معدل الخصوبة عندنا في يوتوبيا يوشك أن يصير صفرا، بينما معدلاتهم في ارتفاع متزايد..ينجب الرجل عشرة أطفال يموت منهم خمسة لأنه لا توجد عناية طبية من أي نوع، لكن الزيادة مستمرة برغم كل شيء"⁸، وأعدادهم تفوق سكان يوتوبيا الذي تقل الكثافة السكانية لديهم وتنخفض نسبة الإنجاب عندهم حتى تنعدم رغم ما يملكون من وسائل خيالية تساعدهم في الإنجاب والنمو، وكأن معالم الحياة الحقيقية اختفت. وهذا ما تسرده الرواية التي تستهل بوصف حياة أثرياء يوتوبيا الفارهة؛ "أصحو من النوم.. أفرغ مثانتي.. أدخن.. أشرب القهوة.. أخلق ذقني.. أعالج الجرح في جبهتي ليبدو مريعا (...). أتناول الإفطار.. أصب اللبن على البيض وأمزق كل هذا بالشوكة.. ألقى بالخليط المقرز في القمامة.. أتناهب.. أضحك.. أبصق.. ألتهم اللحم المحمر.. أفسد اصبعي في حلقي.. أدخل غرفة نوم لارين لأفرغ ما بمعدتي على البساط.. أضحك"⁹.

حتى تتغلغل في تلك المجتمعات وتبرز تشظيها وجوانبها السلبية، فلا أخلاق تحكمهم ولا دين يغذي روحهم، ولا قانون يثبط همجيتهم وتمردهم، وحدها قوة المال والسلطة تحكم هذه المجتمعات العلوية. التي تحتكر الأموال وحتى الدواء والاتصالات "اتصل بأبيه ملك الاتصالات الذي أطلق بعض السباب، ثم أرسل له طائرة هليكوبتر خاصة بالمارينز"¹⁰، نجد أنفسنا أمام نمط حياتي مختلف فأصبحوا يحملون أسماء عصرية ذات صبغة أجنبية واختفت الأسماء العربية ذات الموضة القديمة تماما من هذه المجتمعات التي اتصلت

تماما عن هويتها العربية وأصبحت هذه المسميات أكثر انتشارا في المجتمع اليوتوبي، وحدهم الأغيار من يسمون هذه الأسماء المبتذلة؛ "هل تعرفين أنهم هناك لا يستعملون أسماء لارين وجرمينال...؟... يستعملون أسماء مثل (باتعة) و(زكية) و(عطيات).." ¹¹.

والحقيقة أن هذه الأسماء هي فعلا في طريقها للاندثار، ذلك أن عائلات اليوم في أغلبها أصبحت تفضل أسماء أكثر عصرية وبعيدة كل البعد عن أصولنا العربية، بغية مسايرة روح العصر على حساب جذورنا وكأننا نرغب في التنصل من الماضي ذلك الشيء الوحيد الذي نملكه.

هذه اليوتوبيا المعاشة في الوقت الذي كان لا بد أن تكون عالما مثاليا والنموذج الأحسن لحياة مشتركة ومتماسكة تحقق التكامل الروحي والمادي للإنسان، استحاتت ملا عند سكان يوتوبيا وإحساسا بعبثية الحياة والرغبة في المخاطرة والموت لتحقيق الشعور بالرضا والمتعة وكسر نمطية حياة الرفاهية المضجرة التي قتلت معنى الحياة لدى شباب يوتوبيا المدللين الذين ينالون ما يريدون، وجربوا كل شيء ممنوع وممتع، خاصة وأنهم يعيشون في استقرار وأمان تام لا سرقات تحدث، ولا قتل أو موت في عالمهم. حياة مثالية بامتياز لا تحقق الرضا والسعادة لسكانها تلك الغاية المنشودة في الأساس.

بعد أن سمح للانفتاح الغربي بالنخر في أغوار المجتمع وترسخ أفكارها التحريرية في عقول الشباب، حتى أضحى المجتمع المصري غريبا بامتياز، لكنه النسخة المشوهة عن الغرب حيث احتضن كل ما هو سلبى من ثقافة الآخر.

وبعد أن كانت المرأة تناضل من أجل الحرية والانفتاح والمساواة، وتشكوا من تكبيل المجتمع لها وقيود الدين التي أثقلت كاهلها، هي المرأة المعاصرة أداة يستغلها الرجل كيفما شاء تهان في صمت منها، "عندما لا يصدر أحدهم أمرا لك طيلة حياتك.. عندما يدلك

الجميع.. عندما تتحقق أفته أحلامك، فإنك تعشق من يرغملك على شيء.. كنا نلعب تلك اللعبة كثيرا.. نأمر الفتيات وعلى الفتاة أن تنفذ ما يقال لها مهما كان..¹²؛ فأين الرفعة والعلو والسمو الذي كانت تعده لها منظمات النسوية ودعوات التحرر بعد أن تفاقت أزمته وصارت مجرد ظل للرجل وإرادتها مستمدة من إرادته، صحيح أنها تحررت من لجام المجتمع والدين والأسرة وما هي اليوم تلبس ما تهواه وتفعل ما تريد لكنها أضت عبدة للجنس والرجل. حين تحقق المخدرات نوعا من الرضى المؤقت بالنسبة لسكان يوتوبيا كعادة روتينة تمارسها الطبقة الغنية لكسر رتابة الحياة السهلة التي تعيشها، في المقابل تمثل الحلم والمبتغى الذي يلهث وراءه الأغيار في استعداد تام للتخلي عن الشرف والانتقام لعزة النفس "هل تعرفون هذا؟.. (فلوجستين) !.. من لم يجربه بعد فليعرف أنه شيء يختلف كلية عن (الكله) والبانجو والصراصير.. خذوه وجربوا.. نقطة واحدة على الساعد.. لا تكثرُوا منه يا أولاد البلهاء فقد رأيت من يموت في ثوان لأنه وضع نقطتين... على الفور نسوا كل شيء عن الانتقام، وانقضوا على الأمبول... كتلة أجساد تتصارع"¹³.

وكان السارد باستحضاره للجنس مرتبط بالجد، والمخدرات تذهب العقل والمال يفسد الروح، وهذه المفاهيم مجتمعة تشكل ثالث الظلام، المؤامرة التي تسعى لفساد البشرية بإباحة المحرمات ويستباح دم الأبرياء لأجل المتعة والتسلية في نسق تتعدم فيه أدنى معايير الإنسانية.

أما بالنسبة لـ"لأغيار" الذين انقلب دنيتهم إلى حظيرة مقرفة تنتشر فيها كل الآفات البغاء والسرقه والإجرام والموت، والطعام الرديء الذي ترفض حتى الحيوانات الاقتراب منه، "هناك ققص خشبي عليه أكوام من جلود الدجاج بشعة المنظر.. المصيبة أن الناس يبتاعون هذه الأشياء.. (...). يبدو أن أرجل الدجاج رائجة كذلك.. الرؤوس.. الأجنحة.. لكن أين الدجاج نفسه؟.. حتى دجاجهم تحول فيما يبدو إلى عظام يكسوها الجلد فقط"¹⁴، ومع تشوه

أشكالهم البشرية، هي في نظر السارد القصاص الأمثل لشعب رضي بالذل والمهانة والضعف ردحا من الزمن دون أن يثور لاسترجاع حقوقه المبتورة وحياته الضائعة.

حين تصبح الحاجة والعوز والفقد نعمة على المرء عندما يتخلص من كل تداعيات التكنولوجيا والتقدم الحضاري الذي لم يحل يوما مشكلات الإنسان وإنما زادها تفاقمًا، فسبل الراحة هذه من تلفزيون واتصال.. لم تكن سوى ملهيات وقيود تكبل الإنسان، وبهذا فإن عالم الأغيار بكل مساوئه يبقى أفضل من يوتوبيا كونه على الأقل استطاع التحرر من تبعية الآخر والحاجة له، "من المسلمي أن تلاحظ إلى أي حد انكشفت احتياجات المرء.. في البدء كانت هناك شقق بها أجهزة هاتف وثلاجات وتلفزيون وحمامات.. لهذا كان الناس دائمي الشكوى من حياة الكلاب التي يرغمون فيها على مشاهدة برامج تلفزيونية سخيفة، مع انقطاع الكهرباء، وانقطاع اتصال الهاتف، وانقطاع المياه.. عندما تفقد هذا كله لا يعود هناك مصدر للشكوى.. هذا نوع خاص من الكراما كما ترى"¹⁵.

مثلما يستبيح سكان يوتوبيا دم الأغيار واستحقاقهم للموت الذي يمثل الحل الأنسب لهم للتخلص من الحياة الكريهة التي يحيونها، ترى شخوص الرواية من فقراء العالم السفلي بأحقية قتل سكان يوتوبيا كونهم يعيشون في الثراء الفاحش في حين أنهم يرتمون في الهاوية وتحت الحضيض، وبما أنه تم نبذهم من حياة البشر وخلعت آدميتهم منهم "أقسم أخو (عزوز)... ، ليقطعن ساعد أي واحد من قوم يوتوبيا لو سقط في يده.. الجديد في الموضوع هو أنه سيفعل هذا بأسنانه"¹⁶.

إضافة إلى معاملة سكان يوتوبيا لهم كالحوانات التي يستباح قتلها، ليصبح فعل القتل مسألة جدلية "يقول هومو: إن ما يدهشني هو هذا العداء الشديد الذي كان يضمه ذلك الإنسان القديم لنوعه... إن شريعة الغاب في العصور المظلمة كانت تبيح القتل عند الجوع،

ورغم هذا فالحيوان لم يقتل حيوانا من جنسه، وظل الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يمارس قتل أخيه.. على المستوى الفردي والمستوى الجماعي¹⁷.

وعليه يمكن استيعاب الرؤية المتوجسة للكاتب حول مسألة اليوتوبيا والرافضة لها، من خلال تشييده لعالم مثالي في ظاهره لكن تتخلله الكثير من الثقوب، ليصوب نظر القارئ نحو العيوب، لنجد أنفسنا أمام ديستوبيا مغلقة برداء اليوتوبيا، عندما "ينظر المؤيد لليوتوبية إلى البشرية ومستقبلها نظرة أمل أو نظرة خوف، فتكون النتيجة في العادة ديستوبيا. لكن اليوتوبيا هي في الأساس فلسفة أمل وتتسم بتحويل أمل عام إلى وصف لمجتمع غير موجود"¹⁸.

بالرغم من هذه التناقضات والصراعات بين العالمين نلتمس لهما العديد من النقاط المشتركة، ذلك أن العنف والهوس بالمخدرات، "كلانا هنا وهناك نعشق العنف.. كلانا هنا وهناك نحب المخدرات.."¹⁹.

فإن كان العنف في عالم الأغيار سببه الظلم والفقر وسنوات القهر التي عانى منها هذا الشعب، فإن الملل والرغبة في الحصول على المتعة بطرق غريبة وجديدة مسوغ اللجوء إلى النحر في فضاء يوتوبيا، وإذا كانت المخدرات تنسي الأغيار شيئا من معاناتهم اليومية أوبالأحرى التظاهر بالنسيان وحسب، فإنها تبعد السأم المؤرق لسكان المدينة الطوباوية.

وهنا نتسع هوة المفارقة حين يدبج السارد صورة لعالمين مهما بدى التفاوت والاختلاف بينهما إلا أن الطبيعة البشرية تجمعهما، إنها صورة الإنسان ذاتها مهما اختلف المكان والزمان وتباينت الظروف، وعالم الأغيار ما هو إلا فضاء موازي للمستقبل الذي ينتظر أهالي يوتوبيا، فالانهيار حين يكون في رقعة ما سرعان ما يجتاح كل المكان، حاله حال الثقب الصغير الذي ما يفتئ أن يصير فلجا عظيم.

حين يكون الإنسان في ذروة رفايته ومثاليته المزعومة وفي قمه انحطاطه فتتغلب المادة على الروح وتختل المعادلة الكونية لسيرورة الحياة، ويظن الإنسان نفسه إنساناً. فتتكشف آثار العولمة وسلبياتها وكيف تمكنت من السيطرة على كل المجتمعات العربية. بطبيعة الحال تجسد الرواية رؤية استشرافية للعالم ومصير المجتمعات، انطلاقاً من رؤية ذاتية إزاء أحداث وتقلبات ثقافية واقتصادية وسياسية واجتماعية، في ظل سياقات أيولوجية تضرع الصراع بين أقطاب متباينة، ما جعل من النص فضاء لإثارة العجائبي والتصورات المستقبلية للإنسان المعاصر.

2.2 المسخ:

المسخ هو أحد التيمات الرئيسية في القص العجائبي، باعتباره كائن تحول من جنس إلى آخر يحمل سمات بشعة مع إبقاء بعض من صفات جنسه الأول، "هو تحول للكائنات من جنسها المخلوقة عليه إلى جنس آخر بعيدة عنه، مع احتفاظها بعد التحول ببعض السمات من جنسها الأول"²⁰.

وقد تكون الشخصية الممسوخة خيالاً لا يمكن رؤيته، "إن الشخصية في الرواية الفانتاستيكية تحقق التنوع عن طريق التحول والامتساخ، وتستطيع أن تكون نباتاً أو جماداً، كما تستطيع أن تكون روحاً لا مرئية"²¹.

يصور لنا الروائي تحول الإنسان وتفسخه من كائن له سمات بشرية إلى كائن غريب مشوه أقرب إلى الوحش، وهذا ما يعبر عنه وصف السارد للأغيار في قوله: "لكنك تشم منهم خليطاً مزجاً من المقت والخبث والتملق والغضب المكبوت والرائحة الكريهة.. سنوات من القهر جعلتهم أقرب إلى الوحوش"²².

وبالرغم من الشكل الخارجي المخيف إلا أنه لا يزال محتفظا بسلوكيات بشرية، فقد رفض قتل زوار يوتوبيا بالرغم من مقتله لهم، ومعرفته بقدمهم لاصطياد "الأغيار" للمتعة والإثارة. إلا أنه تغاضى عن أفعالهم الشنيعة، وقرر مساعدتهم للعودة على الديار "ماذا تنوي عمله معنا؟ سأرجعكما إلى (يوتوبيا) طبعاً.. لا نية لي في قتلكما (...) برغم كراهيتي تلك"²³، واكتفى بجعلهم يعيشون نفس معاناة أهل يوتوبيا يأكلون طعامهم ويلبسون لباسهم وعلمهم حتى التصرف مثلهم والقيام بأعمالهم، "قلت للفتى وأنا أخرج مديتي: تنظف أن تشفي؟ نظر لي في حيرة وقد تقلص وجهه اشمئزازا فقلت مفسرا: أي تشق البطن وتخرج الأحشاء أم تقوم بتجريد العظام من اللحم؟ لن أستطيع القيام بهذا ولا ذاك"²⁴.

في الوقت الذي كان "الأغيار" يبحثون عنهم ويريدونهم بشدة، تكفل بتهريبهم وإعادةهم من أين جاؤوا وتحذيرهم من العودة إلى الاصطياد، "قال (جابر) وهو يشير بالكشاف لأعلى: لأسباب واضحة لن ألحق بكما.. أنتما في أمان الآن.. وداعاً.. فقط لا تعودا ولا تحاولا صيد واحد آخر منا.. فلن أكون موجودا في المرة القادمة.."²⁵، فقد كان يؤمن ببشريته وبأنه مزال إنسانا يمكنه فعل الخير بلا مقابل في زمن استُبيح فيه القتل وانحطت البشرية التي أصبحت حياتها أقرب إلى حياة الحيوان أو وحوش الزومبي.

هذا التحول الذي يطرأ على شخصية المسخ لا يكون اعتباطا وإنما ينبثق انطلاقا من تغيرات اجتماعية واقتصادية وحتى نفسية، وهو ما تعززه معاني الرواية التي جعلت من تيمة الفقر والجوع والقهر عاملا مساهما في هذا التحول بشكل مباشر بالنسبة لـ"الأغيار" على مستوى الشكل وهو ما تجسده شخصية "جابر"، والثراء الفاحش وتحقيق كل الأحلام حد الملل سببا رئيسا في تفسخ سكان يوتوبيا وفقدانهم لآدميتهم مع احتفاظهم على الهيئة وهو ما نلمسه في شخصية "علاء".

فالشخصية "تتماس في شكل مضخم مع تحولات الواقع وتحولات النفس الإنسانية وتقلباتها، أن امتساخ شيء ما هو خضوعه لتحولات تطاله من حيث الزيادة والنقصان"²⁶، كما قد "يشمل الكائنات البشرية والجماد والحيوان"²⁷، وشخصية المسخ تحتل أن تظهر في أي كائن سواء كان إنسانا أو حيوانا أو شيئا، كما يحتمل تحولها الزيادة والتضخم أي ظهور سمات جديدة، أو النقصان وفقدانه لبعض من سماته الأصلية.

لكن جميله رد إليه بكل فظاعة فقد أقدم الغريب على قتله بكل برودة في الوقت الذي أدار ظهره ليعود إلى دياره، وافتك يد الجثة ليأخذها معه إلى يوتوبيا دليلا على مغامرته للتفاخر أمام رفاقه الأغنياء، "لا بد وأنه لم يدرك أنني التقطت ذلك الحجر وهويت على مؤخرة رأسه بأقوى ما استطعت (...)" لم يعد يهمني من أمره سوى هذا الشيء الذي أخذته ولففته في السترة المتسخة التي منحها لي..²⁸.

لنتحقق معاني الوحشية والتفسخ في هذه الشخصية التي تتبدى عليها سمات النعمة والثراء والنظافة؛ فالروائي هنا قلب الصورة النمطية للمسوخ الذي يتحقق التحول لديه على مستوى الشكل ليكون التفسخ هنا على مستوى الروح حين تنعدم الإنسانية وتصبح الجريمة لعبة ممتعة للتفاخر.

3.2 الفضاء العجائبي:

تكشف أحدث الرواية عن فضائين متناقضين الأول يتمثل في عالم اليوتوبيا بما يحمله من رفاهية ومثالية مطلقة، ثراء فاحش طعام مترف، مخدرات تأخذك للعالم الآخر إضافة إلى عبيد يقومون بكل الأعمال الشاقة، إنه عالم متكامل من مختلف النواحي تعيش به حلقة من الأغنياء الذين يحكمون يوتوبيا بعد أن استولوا على كل الخيرات والأموال والمعاملات، ولم يتركوا شيئا للأغيار، "وماذا بوسعك أن تفعل في هذه الجنة الصناعية؟..

تنام.. تتعاطى المخدرات.. تأكل حتى يزهد الطعام أنفاسك.. تقيء حتى تتمكن من معاودة لذة الأكل.. تمارس الجنس"²⁹.

ومدينة يوتوبيا تختلف عن المدن الأخرى فهي فضاء منفصل عن الواقع لا يمكن لـ"الأغيار" عبور بواباتها إلا تحت مراقبة شديدة وبإذن للدخول "نعم هناك عمال في يوتوبيا لأن هناك أعمالا لا نستطيع القيام بها.. يأتون صباحا بحافلة خاصة ويعودون بها ليلا، وهو تحت المراقبة في كل الظروف"³⁰.

أكثر من ذلك بالرغم من تجاور هذين الفضائين إلا أنهما في انفصال تام حيث يصعب الاقتحام في كلا العالمين، حيث أن لكل فضاء خصوصيته، ومثلما يُمنع الأغيار من دخول يوتوبيا يُحضر على سكان يوتوبيا التسلل إلى عالم الأغيار، ليس من السهل أن تسلل لعالم الفقراء بالخارج.. العسر كل العسر أن تستطيع المرور من بوابة الحراسة المحكمة حول (يوتوبيا)"³¹.

هو النقيض الذي نلمسه في عالم الأغيار ذلك المكان الفقير البارد الموحش الذي يتظاهر الناس فيه بالعيش، وتتعهد فيه أدنى مقومات الحياة، فطعامهم عبارة عن كومة من الفضلات وبعض الأطعمة المكدسة وبعض المشروبات الرخيصة "خلاط من الأطعمة.. هناك كومة أرز وكومة من مادة عجينية بيضاء أعتقد أنهم يطلقون عليهم اسم (كسكسي) وبرتقال ويوسفي ومشروبات ساخنة لا تعرف ما هي.."³².

والروائي أطلق على هذا الفضاء اسم "شبرا" اختارها لتكون عالم الأغيار أولئك الغرباء عن عالم يوتوبيا من الفئة المستضعفة المترتبة، "العالم الآخر الذي تركناه منذ زمن، يوم تواريها خلف أسوار (يوتوبيا).. شبرا.. هكذا يطلقون عليها.. شبرا التي لم أرها إلا في أفلام السينما.. للاسم رنين غريب قاس في مسمعي"³³، هذا الفضاء الذي هجره اليوتوبيون ليعيشوا في مدينتهم الطوباوية حياتهم المترفة التي طالما حلموا وسعوا لها.

بالرغم من أن يوتوبيا فضاء مركزي بمقوماته التي ينماز بها على عالم الأغيار، إلا أن الروائي جعل من هذا الأخير فضاء مركزيا تدور فيه أغلب الأحداث الحاسمة، وجعل القارئ يقترب عن كثب ليرى معاناة الفقراء وتفكيرهم، لإدراك الهوة الساحقة بين العالمين "الصورة التي تريانها كانت موجودة منذ البداية لكن بشكل غير واضح، ثم تضخمت شيئا فشيئا... يصير الأغنياء أغنى والفقراء أفقر، ثم تأتي لحظة يحدث فيها الانهيار"³⁴.

هذا وقد اختفت الحيوانات نهائيا من عالم الأغيار، بعد أن استبدل البشر بأشباه البشر الذين يشبهون الحيوانات في تصرفاتهم وطعامهم، لم تعد هناك أهمية لوجود الحيوان بعد أن أصبح الناس يتصرفون مثلهم، "لم تعد هناك كلاب في الشوارع على الإطلاق.. لا قطط.. ولا فئران"³⁵.

هذا ما يجعلنا نشعر بنوع من الفانتازيا والغرابة حول إمكانية وجود هذه الأفضية في الواقع حاضرا أو مستقبلا، إذ أننا نجد بعض النماذج القريبة منها في الواقع، فغالبا ما تسعى طبقة الأغنياء إلى بوتقة نفسها في مناطق محددة تخصص للطبقة الثرية، بعيدا عن صخب حياة العامة من الناس.

لذا نجد في العديد من البلدان مناطق مخصصة للمجمعات الضخمة، ومصر إحدى أكثر البلدان التي فصلت بين الطبقة الغنية والطبقة الفقيرة المعدمة، حتى صار الساحل الشمالي حكرا على هذه الطبقة من الأثرياء التي صنعت لنفسها منتجعات وشاليهات "أرعى الصيف شهوره بسلام ومتعة على نزلاء الساحل الشمالي في مصر بعدما بات مقصورا على كبار الأثرياء فقط (...)" وما بين الشواطئ الناعمة في الشمال، والشوارع والأسواق الخشنة في الدلتا والجنوب، قضى المصريون أيام الصيف. ورغم إسدال الستار على موسم الإجازة الصيفية، وعودة المصطافين من شواطئهم الشمالية الراقية إلى المدارس الدولية الفارهة، فإن

أبناء الطبقة الفقيرة والمتوسطة، يقاومون زحام الشوارع، وتكدس حافلات النقل العام، ومترو الأنفاق، وكثافة فصول المدارس الحكومية³⁶.

هذه التقسيمات الجغرافية زادت من تفاقم الهوة بين الطبقة الفارحة والطبقة العامة، بعد أن استولت الأولى على أغلب العقارات ورؤوس الأموال ومختلف الاستثمارات في مصر، في حين أن أغلب السكان المصريين من عامة الشعب يعانون الفقر والجوع والمرض، بينما يحظى الأثرياء بأجود الأطعمة وأفخم المنازل، ويتلقون العلاج في أحسن المستشفيات، ويدرس أبنائهم في مدارس خاصة، وهذه المظاهر كلها تجزم أننا لازلنا نعاني من أزمة الطبقات الأرستقراطية بصور مختلفة، والكاتب على وعي بهذه الحقائق التي كرسها في روايته مع إضفاء بعض من الخيال ونوع من المبالغة كنظرة استشرافية لمستقبل أسوء للبشرية.

3. العجائبية في رواية يوتوبيا بين الواقع والمتخيل:

أدخل الخيال عملية ذهنية مجردة مصدره الفكر في حين أن الواقع إفراز مادي ومحسوس "المتخيل" بناء ذهني؛ أي إنه نتاج فكري بالدرجة الأولى؛ أي ليس نتاج فكري بالدرجة الأولى؛ أي ليس إنتاجا ماديا³⁷.

فالمتخيل وسيلة للتحرر من نمطية وقيود الواقعي، كما أنه لا يخلو من ملابسات الواقع ف"يُدمج المتخيل الوهمي في الواقعي، ذلك أن الواقعي هو الأرضية التي تشغل عليها، وتحاول التأثير فيها، وما المتخيل إلا وسيلة من وسائل ضعضة الواقعي من حيث تجاوز المنطق الذي يحكمه إلى منطق خاص يتحكم فيه المتخيل أيما تحكم"³⁸. غير أن الخيال ينطلق من الواقع كمرجع ومادة أساسية ينسج عليها تصوراتهِ التخيلية، وما كان خيالا ومستحيلا في الماضي صار اليوم حقيقة وواقعا ملموسا، فالعلاقة بينهما جدلية.

والحقيقة أن الأحداث العجائبية في الرواية تثير فينا الشعور بالغرابة والتعجب لما تحمله من تخيل يستكره العقل، إلا أنها في جوهرها تقترب كثيرا من الواقع حتى تتماس معه، وهذا ما نكتشفه مع الأنترنت المظلم وما يحمله من خفايا.

خاصة وأن فكرة قتل البشر بغرض المتعة موجودة في الواقع يعتمد عليه بعض القتلة المتسلسلين الذين يمارسون القتل بغير دافع، فقط هي الرغبة في القتل الدافع الوحيد، أفعال تقوم بها فئات شاذة، ونراها حتى تمارس عند بعض الطوائف والمنظمات الإجرامية، بما في ذلك تصيد الضحايا ومراقبتهم واستغلالهم، وأحد الأسباب الذي تجعل المتجرين يستخدمون التكنولوجيا في عملهم هو أنها تمكنهم من العمل دون الكشف عن هويتهم³⁹.

هو ما نجده في الأنترنت المظلم الذي يوفر الحماية لهذه الفئات لتمارس عملياتها البشعة دون الكشف عن هويتها، وتنتشر عبر شبكة الإنترنت المظلمة مواقع تستغل النساء والأطفال (...)" فيما يعرف بالغرف الحمراء، تعمل عليها عصابات الاتجار بالبشر⁴⁰.

الأكيد أن المسير لها ليسوا أناسا عاديين بل لا بد أن تكون لهم سلطة ونفوذ ومال أي من الطبقة الثرية، حتى يقدموا على مثل هذه الأشياء الخطيرة، وهذه الممارسات الإجرامية الغربية والتي كثيرا ما نجدها عند الغرب، لكن الروائي قام بنقل هذه الصور الغربية عنا إلى عالمنا كتصور أن تنتشر مثل هذه الظواهر على نطاق واسع في المستقبل.

"ويشير مونتيرو إلى أن هناك مزاعم مستمرة عن بيع حزم رحلات الصيد البشري مقابل 100 جنيه إسترليني في الأنترنت المظلم⁴¹، فالرواية هنا طرحت قضية مهمة ذلك أن فكرة استعباد الإنسان لأخيه الإنسان الذي يقاسمه الأرض والأصول واللغة والهوية- هذا إن تبقى شيء منها- ويعامله معاملة الوحوش، ويستحقر النفس الذي يتنفسه، هي فكرة مستمدة من صميم الواقع، حتى ولو تم التكتّم عنها، ولم يتم التطرق لها وتسلط الضوء عليها بشكل

مباشر، كأنه ليس لهم الحق حتى في الحياة المعدمة التي يعيشونها، فهل من الممكن أن تزيد مادية الإنسان وقسوته مع تقدم الزمن.

هذا ما حاولت الرواية طرحه بتوظيفها لمسألة صيد البشر في العصر الحالي، رغم التقدم والتطور والرفاهية التي يستغرق فيها الإنسان المعاصر، إلا أنه لا يجد متعته ولذته إلا في تعذيب وقتل واستعباد الغير.

هو ما تمثله شخصية المتلهفة لشبق الصيد، يظهر هذا في حوار مع والدته: "أنا راغب في تجربة الصي..". "شهقت....." قالت في ذعر وقد اتسعت عيناها: "هل ينقصك شيء؟.. معك من المال ما يكفي لتشتري يوتوبيا كلها..". وما حولها... لديك من وسائل التسلية ما يسري عن جيش اليتامى الباكين"⁴².

حين تصل إلى ذروة الرفاهية والعطاء تصبح الحياة بملذاتها ضرباً من العبث، وتغمر الإنسان حالة من الملل والاكتئاب حين يكون كل شيء أمامه متاحاً ومباحاً، المال، المخدرات والجنس، هذا الثلاث الخطير كونه من الطابوهات التي يحاربها كل من الدين والمجتمع لما تنبئه من فساد للروح وانتفاض للقيم، والروائي أكسب الشخص الروائية خاصة كسر هذه الطابوهات، فأباحت لنفسها فعل كل شيء، حين تخفت سلطة الدين وتحل قيم المجتمع يصبح الإنسان كائن يسير وفق رغباته وغرائزه حال البهيمة.

والرواية غيببت من متنها الطبقة الوسطى كأنها اختفت من العالم ولم تظل سوى طبقة الفقراء والأغنياء، ليختل التوازن الذي طالما حافظ عليه وجود هذه الطبقة، ورغم أنها مسألة يستبعدا العقل والمنطق في الوقت الحالي، إلا أن هذه المسألة الشائكة يتنبأ العديد من العلماء بوقوعها مستقبلاً، حيث "يوجد هناك حديث عن اختفاء الطبقة الوسطى، حيث تميل إلى عدم المساواة في الداخل إلى تغريغ الوسط، إلى حد كبير والذي يشكل العمود الفقري في المجتمعات، حيث تعاني هذه الطبقة الأمرين في ظل استمرار التداعيات الكارثية"⁴³.

لنجد أن "المتخيل أكثر جرأة من الواقعي، وأشد وقعا منه في المتلقي/القارئ، وأما المتخيل يقول أشياءه بصورة واضحة، ويقدم حقائقه على أنها الحقيقة الأولى التي يتجاهلها الواقع"⁴⁴، لتكون بذلك الرواية من خلال المزج بين الواقع والخيال، تصور للعالم في السنوات المقبلة انطلاقا من الواقع المعاش؛ في هذه المجتمعات المادية حين تتضارب المصالح وتعلو المصلحة الفردية على مصلحة الجميع، ويتقدم الإنسان في التطور والتكنولوجيا، لكن يعود إلى الخلف فيما يتعلق بإنسانيته حين يتخلى عن مبادئه وأسس.

في الوقت الذي يساق فيه العالم إلى الهاوية بغرس الممارسات العبثية وسعيا لتعميم المازوشية والسادية في عقل الإنسان، خاصة الطبقة الثرية التي تملك كل سبل السعادة حتى تصير شبه معدومة إلى المشاعر، إلا من الضجر المؤرق كونها حققت كل شيء. وتأسيسا على ذلك عرض الروائي أحمد خالد توفيق في يوتوبيته لتناقضات طبقات المجتمع واختلافاته، مفندا لفكرة وجود نظام اجتماعي متكامل خلافا لمزاعم اليوتوبيات والأحلام الواهية لتشييد المدينة الفاضلة، ذلك أن لكل عصر كفاءاته واحتياجاته وكذا تداعياته القيمية.

4. خاتمة:

كان توظيف الروائي لعوالم اليوتوبيا مجرد غطاء لاستحضار الديستوبيا فكان النص الروائي عبارة عن تأملات استشرافية لمستقبل يتسم بالفساد ومجتمعات هشة ينخرها السوء، حين تطفئ الماديات على القيم الروحية. وقد برع الروائي في خلعة الصورة البشرية والتلاعب بالسلمات البشرية وقيم الجمال والقبح والشر والخير. هذا وقد ساهمت الرواية العجائبية بكسرها للأنظمة السردية، وخوضها في غمار الفانتازيا والخيال، مستعينة بمرجعيات من صميم الواقع.

لتنتمك الرواية مخاتلة الواقع بالخيال، حتى صار من العسر الفصل بينهما، ذلك أن فكرة الفقر موجودة في الواقع لكنه تعميمه ونشر على نطاق واسع وبصورة بشعة هنا يقترب أكثر من الخيال إلا أنه يبقى ممكنًا، خاصة وأن ما كان متخيلاً بالأمس هو واقع اليوم.

5. قائمة المراجع:

- ¹ - ماريا لويزا برتيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة: عطيات أبو السعود، الكويت، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1997م، نقلاً عن: يوسف الشاروني، يوتوبيا الخيال العلمي في الرواية العربية المعاصرة، عالم الفكر، ع1، يوليو 2000م، ص 186.
- ² - لايمان تاور سارجنت، اليوتوبية (مقدمة قصيرة جداً)، ترجمة: ضياء وراد، مراجعة: مصطفى محمد فؤاد، مؤسسة هنداوي، ط1، 2016م، ص10.
- ³ - توماس مور، يوتوبيا، ترجمة: أبخيل بطرس سمعان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1987م، ص13.
- ⁴ - لايمان تاور سارجنت، اليوتوبية، ص 14.
- ⁵ - الرواية، ص 24.
- ⁶ - الرواية، ص 30.
- ⁷ - زكي نجيب، محمود، أرض الأحلام، كتاب الهلال، دار الهلال، 1977م، ص 113، نقلاً عن: يوسف الشاروني، ص506.
- ⁸ - الرواية، ص 51.
- ⁹ - الرواية، ص 26.
- ¹⁰ - الرواية، ص 43.
- ¹¹ - الرواية، ص 39.
- ¹² - الرواية، ص 37.
- ¹³ - الرواية، ص 97.
- ¹⁴ - الرواية، ص 53.
- ¹⁵ - الرواية، ص 89.
- ¹⁶ - الرواية، ص 04.
- ¹⁷ - صبري موسى، ص 124، نقلاً عن يوسف الشاروني، ص 204.

- 18- لايمان تاور سارجنت، اليوتوبية، ص 15.
- 19- الرواية، ص 132.
- 20- نبيل حمدي الشاهد، الحكايات العجائبية في السرد العربي القديم، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، 2018م، ص 363.
- 21- الرواية، ص 201.
- 22- الرواية، ص 40.
- 23- الرواية، ص 127-131.
- 24- الرواية، ص 141.
- 25- الرواية، ص 177.
- 26- شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكية، الجزائر العاصمة، الجزائر، منشورات الاختلاف، ط1، 1430هـ/2009م، ص 90.
- 27- المرجع نفسه، ص 90.
- 28- الرواية، ص 178.
- 29- الرواية، ص 19.
- 30- الرواية، ص 40.
- 31- الرواية، ص 38.
- 32- الرواية، ص 50.
- 33- الرواية، ص 49.
- 34- الرواية، ص 106.
- 35- الرواية، ص 71.
- 36- عبد الفتاح فرج، مصر حائرة بين أثرياء الساحل وفقراء الوادي، الشرق الأوسط <https://www.aawsat.com>, 18/09/2023, 12:34h
- 37- حسين خمري، فضاء المتخيل (مقاربات في الرواية)، الجزائر، منشورات الاختلاف، ط1، 2002م، ص 43، نقلا عن فاطمة الزهراء عطية، العجائبية وتشكلها السردية (في رسالة التواضع والزواضع لابن شهيد الأندلسي ومنامات ركن الدين الوهراني)، باتنة، الجزائر، دار المتقف للنشر والتوزيع، ط2، 1442هـ/2021م، ص 194.

- ³⁸- فاطمة الزهراء عطية، المرجع نفسه، ص 194.
- ³⁹- رامي متولي القاضي، مكافحة الإجرام المنظم عبر شبكة الإنترنت المظلمة (دراسة تحليلية في التشريع المصري)، المجلة الجنائية القومية، المجلد السابع والستون، العدد 03، نوفمبر 2021م، ص 73.
- ⁴⁰- المرجع نفسه، ص 72.
- ⁴¹- محمد عبد الجليل، تجارة الأسلحة وفتيات الليل عبر الأنترنت.. بين الحقيقة والخيال؟، جريدة الوطن <https://www.alryadh.com>, 03/10/2023, 16:09h.
- ⁴²- الرواية، ص 28.
- ⁴³- فواز يوسف غانم، اندثار الطبقة الوسطى عالميا 12/09/2023, 19:14h <https://alghad.com>.
- ⁴⁴- فاطمة الزهراء عطية، العجائبية وتشكلها السردى، ص 195.